

التراتبية الجنسية والاجتماعية في النص القرآني

الباحثة الفلسطينية نتالي سلامة

مقدمة

لا تكف أنظمة إنتاج المعرفة والمفاهيم عن هيمنتها في تشكيل الوعي الإنساني، وهي تحكم سيطرتها، بخاصة إذا كانت هذه الأنظمة هي من يمثل الوصاية الثقافية والأخلاقية للمجتمع، فتفرض نفسها ضمن أحقية عليا، لا تكتفي بمجرد حق الصياغة الوجودية للحكاية السردية العليا للإنسان على الأرض، وإنما يكون لها حضوراً فاعلاً في تشكيل رؤيتنا لذواتنا ولغيرنا وللعالم، من خلال ما تؤسسه في خطابها من مفاهيم عديدة تطل نواحي مختلفة من حياة الإنسان.

يعتبر الدين أحد أهم المؤثرات الذهنية والسلوكية في حياة الإنسان، ورغم تنوع الديانات في المجتمع العربي إلا أن الفعالية الكبرى هي للإسلام كون غالبية العرب يدينون به، وبالاستناد إلى الحضور الفاعل له كنظام مؤسس لمفاهيم عديدة، ستحاول الدراسة أن تقارب أثر النص القرآني في إحداث تصورات للثقافة الجنسية في وعي الإنسان العربي، والكيفية التي تؤثر بها هذه الثقافة المتشكلة في وعيه وتصوراتها على الأدوار الاجتماعية والعلاقة بين الجنسين في المجتمع. إذ يمكن القول أن الهندسة الاجتماعية لثنائية الذكر والأنثى في المجتمعات العربية¹ تجد جذور عميقة لها في التصور الديني لدور كل منهما في الفعل الجنسي والفعل الاجتماعي، وثمة ما يمكن وصفه بعلاقة انعكاسية بين تصورات الفعل الجنسي وتصورات الفعل الاجتماعي داخل النص الديني نفسه. وبالتالي يصبح السؤال: إلى أي مدى يمكن القول بأن النص الديني يحتوي خطاباً جنسياً يتحمل المسؤولية أو شقاً منها في إنتاج ذكورية المجتمع من جهة، واحتجاب المرأة وغياب حضور فاعل لها؟

يرى ميشال فوكو في كتابه إرادة العرفان وهو الكتاب الأول من مشروعه في كتابة تاريخ الجنسانية الغربية أن "الحضارات التي مارست قمعاً تجاه الجنس وصادرت خطابه تمتاز بكونها حضارات مضطربة سلوكياً ومعرفياً، الأمر الذي يعني أن مجتمعات هذه الحضارات ستظل تعاني قمعاً واضطراباً في سلوكها الاجتماعي والسياسي والديني، وأن عليها، إذ ما أرادت أن تسير نحو التفاعل والعقلانية والتنمية الشاملة، أن تقوم بتصويب مسيرتها الجنسية ومراجعة سجلها الجنسي ومساءلته"².

وبمقارنة الماضي بالحاضر يمكن الحديث عن مسار معكوس لتناول موضوع الجنس في الفكر العربي والإسلامي، ففي حين شهد تاريخ الفكر في العصور القديمة انفتاح وجرأة كبيرتين في تناول موضوع

1- المقصود بالهندسة الاجتماعية لثنائية الرجل والمرأة هو التصورات الاجتماعية لمكانة وحضور كل منهما اجتماعياً.

2- ميشال فوكو. تاريخ الجنسانية الجزء الأول "إرادة العرفان". ترجمة محمد هشام. 2004. المغرب: أفريقيا الشرق، ص33.

الجنس³، فإننا اليوم، نجد أن موضوع الجنس أقل ما يقال عنه اليوم بأنه المغمور، المسكوت عنه، وبدورها؛ تأتي هذه الدراسة كمحاولة تهدف إلى نقله من مجال المسكوت عنه واللامفكر فيه إلى مجال القول والفكر. ولكن لماذا مفهوم الجنس؟ أو ما هي أهمية تفكيك الخطاب الجنسي؟

تتبع أهمية تفكيك الخطاب حول الجنس من كونه خطاباً شاملاً يقدم رؤى وتصورات عامة ومفصلة عن المجتمعات وفاعلية الأفراد فيها، وهذا ما ستسعى هذه الدراسة لتوضيحه وتبينه، وبذلك تأتي عملية تكوين وعي نقدي على الخطاب الجنسي المهيم على وعي الإنسان العربي، كمحاولة يمكن أن تسهم في إحداث مساحة ضوء على جانب مهم من تحرير الوعي العربي بشكل عام.

ولكن لماذا مفهوم الجنس في النص القرآني بالذات؟ رغم أن موضوع الجنس كان حاضراً في مجالات عدة، وهناك في الحقيقة فعاليات كثيرة ساهمت في إنتاجه كمفهوم وتصور وهي النص القرآني والحديث النبوي والفقه واللغة العربية والسياسية والاقتصاد وغيرها، إلا أن هذه الدراسة ستختص وتتحدد بتفكيك الخطاب القرآني حوله؛ فبرغم النزعة المحافظة المحتاطة فيه؛ يمكن القول، بأنه يحتوي خطاباً شاملاً ومتكاملاً حول الجنس، يتضمن ما يمكن الإشارة إليه بصورة نموذجية للجنس، تظهر كمؤثر فاعل، تفرض نفسها، على صياغة حضور كل من الرجل والمرأة في المجتمع. هذا بالإضافة إلى كون الخطاب القرآني خطاباً مؤسساً في الثقافة العربية، فهو خطاب مقدس ساهم وأثر في إنتاج الخطابات اللاحقة.

اشكالية الدراسة

رغم كثرة الدراسات التي تناولت الحضور الطاغي للرجل وذكوريته في المجتمع العربي، ورغم الاختلاف في المنطلقات الفكرية ورؤية تلك الدراسات لأسباب التراتبية بين الجنسين ولكيفية التغلب على ذكورية المجتمعات، إلا أننا لا نجد دراسة تربط بشكل مفصل وكافي العلاقة ما بين تصورات الإنسان العربي للحضور الجنسي وتصوراته للحضور الاجتماعي. وبما أن الفعل الجنسي علة الوجود والبقاء، فهو فعل أولي بامتياز، وإن من شأن كل أولي أن يرتب أثراً في طبيعية كل حضور لاحق مستتبع، فإن عملية إنتاج مفهوم الجنس في الأنظمة المعرفية المهيمنة من شأنها أن تؤثر على صياغة وخلق تصورات على مجمل العلاقات في طبيعية حضور كل من الرجل والمرأة في المجتمع.

تسعى هذه الدراسة للبحث عن العلاقة التي تربط بين المعرفة الجنسية المصاغة في الخطاب الديني والمعرفة المقدمة في الخطاب ذاته حول ثنائية الذكر والأنثى في المجتمع، وأثر كل ذلك على المجتمع

³- يبين صلاح الدين المنجد وجود ما يسميه بخطاباً عربياً قائماً بحد ذاته عن الجنس في العصور الإسلامية المزدهرة حيث يشير إلى وجود مؤلفات جنسية عربية متنوعة سواء في العصر الجاهلي وفي العصور الإسلامية بخاصة الأموي والعباسي. للمزيد من الاطلاع، أنظر صلاح الدين، المنجد. الحياة الجنسية عند العرب من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري . 1975. دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، ص79-94.

وطبيعية حضور أو غياب الرجل والمرأة فيه. وذلك من خلال البحث أولاً في أشكال التصور الديني الإسلامي حول الجنس، ومن ثم في أشكال التصور الديني حول الذكر والأنثى وحضورهما في المجتمع، وصولاً إلى فهم وتحليل العلاقة بين هذين التصورين، وأخيراً توضيح انعكاس المعارف النصية في إنتاج ذكورية المجتمع من جهة، واحتجاب المرأة وغياب حضورها الفاعل من جهة أخرى.

وفي سبيل هذه الإشكالية تذهب الدراسة إلى طرح الأسئلة المركزية التالية:

كيف تناول النص القرآني موضوع الجنس؟ ما هو التصور الذي قدمه النص القرآني حوله؟

كيف تناول النص القرآني ثنائية الذكر والأنثى وحضورهما في المجتمع؟

هل ثمة في النص القرآني ما يشير إلى انعكاس لموقع كل من الرجل والمرأة في الحياة الجنسية على موقعهما في الحياة الاجتماعية؟

إلى أي مدى ساهم الخطاب القرآني حول الجنس في إنتاج ذكورية المجتمع من جهة، واحتجاب المرأة وغياب حضورها الفاعل من جهة أخرى؟

فرضية الدراسة

إن الوعي العربي حول موضوع الجنس والتي ساهم في إنتاجه النص القرآني كنظام مهيم معرفياً ساهم بشكل أو بآخر في إعطاء دوراً قيادياً للرجل في المجتمع، بينما تحولت المرأة إلى أدوار اجتماعية تتميز بالدونية وبالتبعية، تتطابق تماماً مع دورها وموقعها الثانوي في الحياة الجنسية، كما جاء في النص. وبناءً على الافتراض السابق تصبح المقولة الأساسية التي تنطلق منها هذه الدراسة وتسعى إلى تفحصها هي: "إن التصور الديني للجنس الذكوري والرغبة المربوطة بالذكر ساهم في التأثير إلى حد بعيد في طرق التعامل المعرفي والمسلكي لثنائية الذكر والأنثى في المجتمع، بمعنى أن إنتاج الجنس ذكورياً في النص القرآني، عبر إعطاء الفاعلية للرجل والمفعولية للأنثى، انعكس بدوره على مكانة المرأة وحضورها في المجتمع العربي والإسلامي"

وبهذا بإمكاننا اجمال فرضيات الدراسة الى التالي:

تفترض الدراسة وجود علاقة بين تصور الفعل الجنسي وتصور الفعل الاجتماعي، فالحاضر على المستوى الجنسي كفاعل ايجابي نشط يكون كذلك في المجتمع، أما المفعول به جنسياً يصبح تلقائياً المغيب السلبي على المستوى الاجتماعي، أي أنه توجد علاقة انعكاسية بين إنتاج الجنس الذكوري نصياً

وانتاج المجتمع الذكوري، فكلما كان الجنس ذكورياً في الأنظمة المعرفية المهيمنة كلما كانت ذكورية المجتمع أكبر، وكلما زاد تصور المرأة كمفعول به جنسياً كلما زاد تغييب حضورها الفاعل اجتماعياً، دافعاً بها للاحتجاب في البيت، وفي اللباس، وفي الشارع والأماكن العامة.

أهمية الدراسة

تأتي أهمية نقد الخطاب القرآني عن الجنس كمحاولة لتجديد الأدوات المعرفية حوله عربياً، وخصوصاً لما لهذا الخطاب من تداعيات مؤثرة تتعدى موضوع الجنس لتصل إلى تصورات اجتماعية تنعكس على صياغة وفهم مجمل العلاقات في طبيعية حضور كل من الرجل والمرأة ومكانتهما، وفاعليتهما في المجتمع.

مفهوم الجنس في النص القرآني

يبين فوكو في قراءته النقدية للخطاب الجنسي في الحضارة الغربية أن الصمت عن الجنس لا يختلف كثيراً عن الحديث عنه، ذلك لأن تكاثر الخطاب الغربي حول الجنس في القرن التاسع عشر، مقارنة بقمعه في العصور السابقة، كان يهدف -بحسب فوكو- إلى إدارته وتنظيمه من قبل السلطة، فالجنس الذي قد يبدو للوهلة الأولى أنه تحرر من قمع الكنيسة، أخضعته السلطة الغربية لقمع العلم، لذا يرى فوكو أنه بالرغم من أن معظم الحضارات أتاحت المجال للحديث حول الجنس وسمحت بإنتاج خطاب جنسي فإن "هذه الإتاحة والسماح لا يعنيان أن فضاءً من الحرية والبوح والإباحة والعقلانية ساد تلك الحضارات ومجتمعاتها... السلطات القمعية تمارس سيطرة على الخطاب الجنسي وتقوم على توجيهه مما يعني أن سلوكها ذو طابع مختال؛ فالسيطرة والتوجيه والتحكم والرقابة أشد خطراً من الإنكار والمنع"⁴.

وكما أن علاقة السلطة بالجنس في التاريخ الغربي المسيحي لم تكن علاقة قمع، وإنما محاولة تقنين وإخضاع، فإن الإسلام، بدوره، وفي نصه المؤسس المقدس -القرآن- أولى أهمية كبيرة للجنس، وامتلك جرأة في الحديث عن مفهومه وتصورات، وقدمه كشأن مهم في الحياة، محدداً الأطر الذي يقع فيه، والكيفيات التي يحدث فيها، حتى أنه ذهب إلى بعض التفاصيل المتعلقة به، وبذلك لم يكتب الموضوع ويحجبه عن الطرح، بل ذهب أبعد من ذلك حين ربطه بالتصورات الدينية، فقعه إيمانياً، وكان في معظمه منطلق من سياقات تشريعية.

⁴ -ميشال فوكو. تاريخ الجنسانية الجزء الأول "إرادة العرفان". مصدر سابق، ص 33

تبين فاطمة المرينسي الباحثة المغربية في كتابها ما وراء الحجاب أن "الإسلام يشمل جوانب كثيرة إنه دين ومجموعة من الطقوس وتاريخ وذاكرة... وكذلك قوانين وممارسات يومية وقواعد للعلاقات العامة والخاصة"⁵. وهذا يتفق بالحقيقة مع المقولة المعجمة عن الإسلام بوصفه دين ودنيا. والجنس بدوره، لا يخرج عن تلك التعقيدات التي وضعها الإسلام للحياة اليومية للمسلم، بل ويمكن اعتباره من الممارسات اليومية التي عنى الدين الإسلامي إلى الاهتمام بها وتأطيرها، الأمر الذي جعل البعض يتحدث عن وجود ما أسماه "بنظرية إسلامية شاملة حول الجنس"⁶.

يوضح فريد الزاهي في كتابه "الجسد والصورة والمقدس في الإسلام" أن الربط بين الجنس والمقدس في الإسلام قد جاء لكون الإسلام "انتبه وبصورة حادة إلى توزيع الممارسة الجنسية في الجاهلية واعتبرها فوضى خطيرة تجهز على النسب، لذا عمدت النصوص الدينية إلى تعقيده وإلى شدة إلى وظيفته الاجتماعية الدينية، أي إخراجها من دائرة الرغبة الفردية الاعتبارية والعاده الطقسية بغية ادماجه مباشرة في دائرة المقدس"⁷. وهكذا، فإن واقع الجنس قبل الإسلام قد ساهم في العمل على ضرورة وضع تشريع له وتنظيمه، بمعنى نظم القرآن ما لم يكن منظماً، أو إرتأى خلافاً في تنظيمه⁸.

هكذا، يمكن فهم الاهتمام بموضوع الجنس في النص القرآني كتأكيد الإسلام على أهمية الزواج، فالزواج لا يقتصر على كونه علاقة واتصال جنسي بين ذكر وأنثى، إنما هو مؤسسة ينتظم المجتمع من خلالها، ومن هنا فإن الربط بين الجنس والزواج دينياً عمل على تحويل الجنس إلى موقعه الإيماني والاجتماعي، وأوجد ما يمكن الإشارة إليه بالربط بين الجنس والمقدس في الإسلام، بمعنى أن الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الجنس ساهمت في تحويل الشهوة أو الرغبة الجنسية إلى فعل اجتماعي وقديسي، واعتبر بذلك النكاح الشكل الشرعي والمقبول للعلاقة الجنسية. ولكن كيف تناول النص القرآني موضوع الجنس؟ وما هي التصورات التي شكلها حوله؟

لوقوف على آلية تقديم النص القرآني لموضوع الجنس، ونظراً لكون الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الجنس بشكل مباشر أو غير مباشر جاءت مبعثرة في مواقع وسياقات مختلفة داخل النص، فقد ارتأت الدراسة تقسيمها ضمن العنوانين التالية:

أولاً: النكاح كوظيفة مقدسة

5 - المرينسي، فاطمة. ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية. ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل. ط4. 2005. المغرب: المركز الثقافي العربي، ص8.

6 - يبحث عبد الوهاب بوحدية في كتابه "الإسلام والجنسانية" إشكالية التجربة الجنسية في الإسلام، ويعالج موضوع الجنس عربياً وإسلامياً عبر تقسيم دراسته إلى جزئين، جزء نظري خاص بتحليل النص القرآني، وجزء تطبيقي خاص بتحليل الواقع. أما الأطروحة الرئيسية التي يقدمها فهي تتلخص في كون الأزمة التي يعيشها الإنسان العربي والمسلم اليوم، تعود إلى ابتعاده عن الإسلام وعدم ممارسته له، فبحسب بوحدية الرؤية الإسلامية للجنسانية محررة وداعية للشعور العميق بالفرح غير أن المجتمع العربي الإسلامي قد ألغى تقريباً هذه الرؤية عبر العديد من الاختزالات والتعديلات، خاصة على مستوى الفقه، للمزيد من الإطلاع أنظر عبد الوهاب، بوحدية، الإسلام والجنس. ترجمة وتعليق: هالة العوري. ط2. بيروت: رياض الريس للنشر والتحرير. 2001. ص31-35.

7 - الزاهي، فريد. الجسد والصورة والمقدس في الإسلام. المغرب: أفريقيا الشرق. 1999، ص58.

8 - للمزيد من الإطلاع على علاقات الزواج المتنوعة التي لم تخضع لضوابط كثيرة ما قبل الإسلام، يمكن الإطلاع على الفصل الثالث من كتاب فاطمة المرينسي ما وراء الحجاب، مصدر سابق، والذي جاء بعنوان "الحياة الجنسية والزواج خلال العصر الجاهلي".

تشير فاطمة المرنيسي ف كتابها "الحريم السياسي: النبي والنساء" إلى أن "السور الأولى هي فعلاً السور التي تظهر فيها الأحكام الأساسية للإسلام المتعلقة بالزواج والإرث"⁹، ويمكن القول، أن الزواج أو النكاح احتل مكانة رئيسية في الإسلام، فجاءت فيه آيات واضحة في النص المؤسس القرآن تحت على الزواج، وضرورة الإقبال عليه، قدم فيها النكاح كوظيفة مقدسة، وفيما يلي عرض لأهم هذه الآيات:

"انكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم"¹⁰. والأمر هنا أمر حقيقي، إذ تتحقق فيه صفتي الاستعلاء والإلزام، والنكاح يظهر كجزء من الأوامر التي يستقيم بها الدين.

وأباح الإسلام تعدد الزوجات إلى أربع نساء باشتراط تحقيق العدل "وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعْوَلُوا"¹¹. ولم يحل القرآن تعدد الأزواج، لكنه أجاز للمرأة أن تتزوج من رجل آخر، ولكن اشترط عليها أن تتحلل من الزوج الأول، ومن ذلك أن تكون مطلقة "فإن طلقها فلا تحل له من بعد أن تتحج زوجاً غيره، فإن طلقها فلا جناح أن يترجع"¹².

وفي حال عدم القدرة على الزواج من المحصنات فقد أجاز القرآن للرجال الزواج مما ملكت أيمانكم "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَثْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"¹³.

ونهى القرآن عن منع الفتيات من الزواج لأن ذلك قد يدفعهن نحو فاحشة الزنا، فإن منعوهن ووقعن في الزنا فكأنما دفعتم فتياتكم إلى الزنا دفعاً "وَلَا تُكْرَهُوا فِتْيَانِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحْصُنًا"¹⁴.

كما بين القرآن أهمية التزاوج من أجل التناسل والإنجاب أسوة بالأنبياء "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية"¹⁵. وقد جاء في القرآن تأكيداً على وحدة الأصل بين الزوجين وعلى المودة والرحمة في

9 - فاطمة، المرنيسي. الحريم السياسي: النبي والنساء. ترجمة عبد الهادي عباس. دمشق: دار الحصاد 1990، ص44.

10 - الآية 32 من سورة النور

11 - الآية 3 من سورة النساء.

12 - الآية 230 من سورة البقرة

13 - الآية 25 من سورة النساء.

14 - الآية 33 من سورة النور

15 - الآية 38 من سورة الرعد.

العلاقة بينهما "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"¹⁶.

في الآيات السابقة نجد حضاً صريحاً على النكاح، يأتي النكاح كفعل أمر، وهو أمر من الخالق. والسؤال الذي يطرح هنا: إذا كان النكاح يمثل وظيفة مقدسة فما هي التوجيهات التي تمت بها صياغته في النص القرآني؟ وكيف تتعكس هذه التوجيهات على مفهوم الجنس القرآني بشكل عام؟.

رسم القرآن حدود الممارسة النكاحية فسعى إلى وضع ما يمكن وصفه بإطار توجيهي تعليمي لضبط الجنس وتقعيده، فجاء فيه آيات ترسم حدود المحلل وهو النكاح المشروع وتوضح ما يجب الإقبال عليه، وأخرى ترسم حدود المحرم أو غير الشرعي، توضح ما يجب تجنبه ومحاربه. وهذا ما سيتم توضيحه ونقاشه في الجزء التالي.

ثانياً: ما يحلّ من زواج للمسلم والمسلمة

ورد في القرآن تفصيل للنساء والرجال ممن يحلّ فيهم وفيهن الزواج، وقد فصلت الآيات طبيعة هؤلاء الرجال والنساء، وجعلت أولها وأولها مرتبة الإسلام، وأن نكح هذه الفئة واجب بدلالة فعل الأمر " وانكحوا" في الآية" وانكحوا الأيامى منكم" ويقصد بالأيامى الذكر والأنثى ممن بلغ الزواج ولم يتزوج، والأيامى في الآية هم من المسلمين بدلالة ضمير الخطاب "منكم" أي من المسلمين.

ويحلّ الزواج للمسلم من الديانات الأخرى مثل المسيحية واليهودية، شريطة أن تكون محصنة أي عفيفة طاهرة غير مسافحة بفاحشة ولا متخذة أخذان أي أخلاء شهوة. ومنها الآية: " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"¹⁷.

وتقدم الآية " وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ" فئة جديدة من النساء وهي ما ملكت الأيمان (الجواري) عند عدم القدرة على الزواج بالحرائر، ولم يعد الرجل يطبق صبراً عن الجماع، فتسمح له ما ملكت الأيمان ولكن بعد استئذان أهلهن (الذين لا حول لهم ولا قوة). وقد قيدت الآية طبيعة النساء مما ملكت اليمين بأنهن طاهرات مؤمنات.

ثالثاً: النكاح المرفوض شرعاً ما يحرم زواجه من النساء

تعامل القرآن مع الجنس غير المشروع أو المحرم، فجاءت فيه نصوص عديدة توضح ما هو غير مشروع في الممارسة الجنسية، فقد بين الإسلام دائرة المحرمات التي يحظر على المسلم الزواج منهن : زوجات الآباء، إلا ما قد حدث من زواج قبل التشريع في ذلك، وحرّم أيضاً زواج الأمهات والبنات والخالات

16 - الآية 41 من سورة الروم.

17 - الآية 5 من سورة المائدة

والعمات وبنات الأخ والأخت، والمرضعات لهم من غير أمهاتهم، واللواتي يصبحن أمهات لهم بالرضاعة، وبنات هؤلاء الأمهات لأنهن يصبحن أخوات لهم بالرضاعة، ويحرم أيضاً الحموات أمهات النساء، وبنات نسائهم بشرط أن يكون الرجل قد دخل بزوجته بعد عقد الزواج، فإن لم يدخل بها وطلقها جازت له بناتها، وحلائل الأبناء أي جواربهم، ويحرم الزواج من أختين وأن يكونا في ذات اللحظة على ذمة الزوج، إلا ما كان قد وقع قبل التشريع لذلك.

" وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا"¹⁸. و"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنَ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"¹⁹

ويحرم كذلك زواج المتزوجة إلا إذا كانت أسيرة حرب أو ما يعرف بالسبايا "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"²⁰.

ويمنع الزواج من عبدة الأوثان "ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن"²¹.

يحرم الطلاق ممارسة الجنس مع المطلقة ويرتب لها وعليها استحقاقاً، يرتب الطلاق منع ممارسة الجنس مع المطلقة مرتين، ويبيحه حين يعيدها ويتفقان على مراجعة بعضهما والعدول عن الطلاق، فإن فعلاً تعود ممارسة الجنس بينهما شرعية. ويتوجب على الزوج دفع ما للزوجة من مستحقات المهر وغيره إلا إذا افتدت به نفسها، وإذا تجاوز الطلاق المرتين للثالثة لا تصح له زوجة إلا إذا تزوجت من رجل آخر فدخل بها فطلقها فتصبح وقت ذلك محللة بالزواج لزوجها الأول، "الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"²².

18 - الآية 22 من سورة النساء

19 - الآية 23 من سورة النساء

20 - الآية 24 من سورة النساء

21 - الآية 221 من سورة البقرة.

22 - الآية 229-230 من سورة البقرة

وإذا طلقها قبل أن يجامعها، وقبل أن يسمي لها المهر وقيمتها، وجب على الزوج تعويض زوجته بشيء عوضاً عن المهر وجبراً للضرر الناشئ. وإن وقع الطلاق ولم يجامع الزوج زوجته، وسمى لها مهراً، وجب عليه دفع نصف ما قد سمي من المهر، ولها أن تسامح فلا تأخذ شيئاً، أو أن يسامح هو فيدفع لها المهر كاملاً. "لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَعِّقِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"²³.

وإذا وقع الطلاق كان للمرأة عدّة وهي فترة زمنية يحظر عليها الخروج والزواج خلالها لضمان صحة الأبوة، "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"²⁴، وهكذا فإن المطلقة (والأرملة كذلك) عليها الانتظار ثلاث دورات للحيض قبل أن تتزوج مرة أخرى، أما إذا كانت حاملاً فعدتها تنتهي بوضع حملها، وإن كانت صغيرة لم تحض أو كانت يائسة من الحيض فعدتها ثلاثة أشهر، "واللأني ينسن من المحيض من نساكنم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللأني لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن"²⁵.

رابعاً: وقت ومكان وأوضاع الجماع

ولم يغفل القرآن عوامل الزمان والمكان والكيفية التي تقع فيها الممارسة الجنسية، ما دام الزوجين متزوجين، فجعل الوقت مفتوحاً لهذا الفعل، لكنه قيده بإخراجه عن وقت الصلاة والصوم والطمث (الحيض)، واعتبر الحيض أذى طلب من الرجل أن يعتزلوا النساء وقت حدوثه، وعليه يقاس النفاس بعد الولادة، فخرج الدم في هذه المناسبات وقت اعتزال، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ"²⁶.

وحدد مكان الجنس بكل الجسد، لكنه حدد الاتيان والايلاج بالفرج فقط، نِسَاءُكُمْ حَرْتُمْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"²⁷. فالحرث كناية عن النسل، أي فأتوا نساءكم من مكان النسل، أو من مكان الطمث، وفي ذلك يقول عن نساء الجنة "لم يطمهن إنس قبلهم ولا جان"²⁸. أي أن الجماع يكون من حيث يخرج الطمث.

وكما أن كلمة (أنى) في الآية ذاتها، تفيد ليس فقط المكان وإنما الزمان، فبالاستناد إلى معنى حرث في الآية فإن المكان تم تقيده بمكان النسل، أما الزمان فقد تم تقيده هو الآخر في كلمة أنى بصوم أو صلاة أو طمث.

23 - الآية 37 من سورة البقرة.

24 - الآية 227 من سورة البقرة.

25 - الآية 4 من سورة الطلاق

26 - الآية 222 من سورة البقرة

27 - الآية 223 من سورة البقرة

28 - الآية 74 من سورة الرحمن

خامساً: عقابات جنسية: يمين الجنس، وعقاب التمتع

في حادثة بات يعرف يمينها بالمظاهرة، والتي حدثت مع خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت حين غضب منها وقال لها: "أنت علي كظهر أمي". أي أنت محرمة علي جنسياً كما حرمت علي أمي، وبعد وقت قصير أَرادها في الفراش فهربت إلى النبي وأخبرته بما حدث معها، فأخبرها الرسول تنزل القرآن فيها "الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ تَوْعَدُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"²⁹.

وتبين الآيتين أن تمتنع الرجل عن ممارسة الجنس مع الزوجة (الظهار) منكر وزور، وأنه لا يجعل المرأة أمًا، فما الأمهات سوى الوالدات لهم، وأوجبت الآيتين كفارة بتحرير رقب.

وفي حالة نشوز المرأة يعطي القرآن موقفاً "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا"³⁰. فإذا نشزت الزوجة ولم تقبل أن يمارس معها زوجها الجنس، فللرجل أن يهجر فراشها وحتى أن يضربها.

أما إذا نشز هو "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إغراضاً فلا جناح عليهما أن يَصِلِحَا بَيْنَهُمَا صلحاً والصلح خيرٌ وأحضرت الأنفس الشحَّ وإن تحسبوا وتتنقوا فإن الله كان بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا"³¹. فلا يحق لها سوى الصلح بينهما ، فالصلح خير!

سادساً: الجنس وأثره على العبادات

تعتبر العبادات حالة من الطقوس التي يعبر من خلالها الإنسان نحو المقدس بتخلصه من الأرضي المدنس، وهو حالة تقع في تناقض مع حالة الممارسة الجنسية التي فيها نشوة الجسد والروح والاحصاب والولادة، فكيف نظم القرآن علاقة الجنس مع عبادتي الصلاة والصوم؟

منع القرآن ممارسة الجنس بين الزوجين أثناء الصيام، وأحله بعد الإفطار من آذان المغرب وحتى صلاة الصبح، "أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"³².

29 - الآية 2-3 من سورة المجادلة

30 - الآية 34 من سورة النساء

31 - الآية 128 من سورة النساء.

32 الآية 187 من سورة البقرة

أما بعد الجماع فإن الأمر يحتاج إلى الطهارة الواجب توفرها للصلاة، فعلى الزوجين الاغتسال عقب الجماع كشرط لا تصح الصلاة إلا به، وإن لم يجدا ماء فعليهما أن يتيمما بالتراب، " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا"³³.

سابعاً: النساء شهوة وإغراء

وضع النص القرآني المرأة في قمة الزينة المشتهاة، " زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ"³⁴.

وقدم القرآن توصيفاً للمرأة التي في الجنة والتي تكون من نصيب المؤمنين الذكور. "مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ"³⁵. والحر جمع حوراء، والحوراء من النساء البيضاء، والعين مفردها عيناء وهي التي اتسعت عينها وحسنت³⁶ ولعل هذه الصفة على وجه التحديد كانت غير متوفرة في مجتمع الصحراء مما عظم حالة الاشتهاة لها.

وبشكل عام، مثل تقديم المرأة في الجنة حالة اشتهاة مرجأة يسعى لها في الآخرة يقول الله تعالى "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"³⁷. و"لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"³⁸. ووصفها أيضا بذات الأثناء المرتفعة غير المترهلة " وكواعب أتراب"³⁹. والكاعب هي الناهد التي يكعب ثديها ويرتفع ولا يترهل⁴⁰.

ثامناً: العورات

ارتبطت معرفة الإنسان للعورة حسب السياق القرآني بالخطيئة الأولى، واعتبرت وسوسة شيطان فبعد أن أزل الشيطان آدم وحواء، وجعلهما يأكلان من الشجرة التي حرّمها الله عليهما، كُشفت لهما عوريتهما، فباتا يتواريان ويحاولان سترها " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

33 - الآية 43 من سورة النساء

34 - الآية 14 من سورة عمران.

35 - الآية 20 من سورة الطو

36 - انظر المعجم الوسيط مادة حور

37 - الآية 56 من سورة الرحمن.

38 - الآية 74 من سورة الرحمن

39 - الآية 33 من سورة النبأ

40 - انظر المعجم الوسيط مادة كعب

النَّاصِحِينَ * فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ⁴¹.

وطالب القرآن بغض البصر حفاظاً على العورات من الظهور، محددًا حرمة رؤية زينة المرأة إلا للبعول (الأزواج)، وأبائهن، وأبنائهن، وأبناء أزواجهن، وإخوانهن، وبني إخوانهن، أو ما ملكت أيمانهن، أو التابعين الصغار أو الكبار في السن الذين لا شهوة لهم بالنساء، "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"⁴². وهكذا تبدأ الآية بفرض قيم غض البصر وحفظ الفرج وتحسينه على النساء والرجال معاً، إلا أنها تتابع لتحديد بالتفصيل مجموعة الذكور الذين يجوز أن تظهر لهم النساء زينتهن.

وجعل العورات التي توجب الاستئذان في الدخول حتى على المحرمين ثلاث أوقات، وهي أوقات يخفف فيها اللباس لكل من الرجل و المرأة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"⁴³.

دلالات وتصورات الجنس في النص القرآني

يسعى هذا الجزء من الدراسة إلى التعرف على الآلية التي أنتج فيها النص القرآني المعرفة الجنسية وعلاقتها في إنتاج أو إعادة إنتاج المجتمع الذكوري. ورغم أن حجم الآيات التي تناولت موضوع الجنس ليست بكبيرة، يمكن الإشارة مع ذلك إلى وجود ما يمكن تسميته بـ "ثقافة جنسية" في النص القرآني. أما ما يجب تأكيده بدايةً أنه: "لا وجود لمفردة جنس في القرآن"⁴⁴، ومن هذه النقطة بالتحديد تبدأ إشكالية الدراسة التي يقدمها إبراهيم محمود في كتابه "الجنس والقرآن" والتي كان لها أثر كبير في خروج هذه الدراسة، كونها شكلت مرجعاً رئيسياً حول موضوع الدراسة، كما أن أطروحات الكاتب الفكرية كان لها أثراً كبيراً على إضاءة جوانب هامة من مواضيعها.

41 - الآية 20-22 من سورة الأعراف

42 - الآية 30-31 من سورة النور

43 - الآية 58 من سورة النور.

44 - محمود، إبراهيم. الجنس في القرآن.. رياض الريس للكتب والنشر. 1994 ص41.

ينطلق ابراهيم محمود من إشكالية خروج الجنس كمفردة من النص القرآني، ويحاول بأسلوب علمي رصين أن يجيب على الأسئلة التالية: "إذا لم يكن للجنس كاسم من حضور في القرآن، فكيف يمكن التعامل معه؟ وهل هذا يعني أن ليس هنالك ما يقابله؟ ولماذا لا يكون موجوداً؟ وأخيراً ما هي دلالات خروج الجنس كمفردة من النص القرآني"⁴⁵.

يبين محمود أنه في لنص القرآني "تأتي كلمة نكاح مقابل لكلمة جنس، حيث ذكرت كلمة نكاح ثلاث وعشرون مرة في القرآن"⁴⁶. فبينما تشير كلمة جنس إلى مدلولات ومعاني كثيرة، وربما إلى تصورات متعددة من مثل ممارسة الحب، أو بالجماع مباشرة، أو بالشهوة حصراً. فإن كلمة نكاح تشير الى تصور خاص ومحدد، فالنكاح علاقة مشروعة بين رجل وامرأة، وهو يدل على إتصال بين الرجل والمرأة مبارك ومتفق عليه دينياً واجتماعياً، وبالتحديد النكاح يتحدد أيضاً مفهوم كلمة زنى، فكلمة زنى تصبح الضد من كلمة النكاح، فالزنى يشير إلى العلاقة غير مشرعة بين رجل وامرأة، فالإتصال بين الرجل والمرأة موجود ولكن غير موافق عليها اجتماعياً ودينياً"⁴⁷.

إن إخفاء الجنس مقابل إظهار النكاح يدخل في دائرة ضبط الجنس وتقنيته في الإسلام. فالنكاح هو ضبط للآلية الجنس حيث يكتسب صفة مشروعية مشرعة، وهذا أمر واضح ومفهوم، ولكن مع ذلك، نجد أنه ومن خلال الجزء الأول من هذه الدراسة الذي اهتم بعرض جميع الآيات الجنسية في النص القرآن فإن الجنس أو الممارسة الجنسية لم تقتصر فقط على لفظ النكاح، الأمر الذي يمكننا القول أن الدراسة التي قدمها ابراهيم محمود لم تقدم المعرفة القرآنية للجنس بالشكل الشامل والتام؛ كونه لم يتطرق ولم يفصل في الألفاظ المختلفة والمتعددة التي جاءت بالنص القرآني كتعبير عن الجنس، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة عرضه وتوضيحه، سعياً بعدها إلى تفكيك تلك الألفاظ وإعادة تجميع دلالاتها، للخروج من خلالها بتصور عام وأشمل للجنس القرآني.

فرغم خروج الجنس كمفردة من النص القرآني واحتواء النص على لفظ النكاح كمقابل لكلمة الجنس، إلا أن النص احتوى مفردات وألفاظ عديدة مائل معناها للممارسة الجنسية من مثل: الطمث الرفث الغشيان الإتيان المباشرة، ولم يكتفي فقط بالنكاح للدلالة على الجنس أو الممارسة الجنسية. ومن أهم الآيات التي احتوت مفاهيم ومفردات أخرى تنوب عن الجنس وكذلك عن النكاح نذكر ما يلي:

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ⁴⁸.

45- المصدر نفسه، ص42.

46 - المصدر نفسه، ص 50.

47 - المصدر نفسه، ص49.

48 - الآية 223 من سورة البقرة

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"⁴⁹.

"أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْضُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْضِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"⁵⁰.

أما تقديم المرأة في الجنة كان عبر استخدام لفظاً جديداً للدلالة على الجنس والممارسة الجنسية: "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"⁵¹. و"لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"⁵².

من خلال الآيات السابقة، نجد أن النص القرآني غني بالحضور الجنسي سواء من حيث وصف مشاهد له، أو ذكره من خلال تشبيهات، ومجازات، وخاصة في علاقة الرجل بالمرأة، أو المرأة بالرجل. كما أننا نجد أن هناك تعدد وغنى في الألفاظ التي مائل معناها الممارسة الجنسية في القرآن ومنه الرفث، "الرفث إلى نسائك" وهي كلمة جامعة لما يريده الرجل من المرأة في سبيل الاستمتاع بها⁵³. وحملت كلمة اللباس في "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" دلالة تصويرية للحظة الاتصال الجنسي. وعبرت كلمة المباشرة "والآن باشروهن" عن الشروع في الممارسة. وأعطى مصطلح الحرث تصوراً مزدوجاً للعملية الجنسية، والكيفية، والأداة والغاية، والتي تشبه حرث الأرض من أجل بذرها للإنبات. وجاء الاقتراب والإتيان بمعنى الاتصال الجنسي "ولا تقربوهن حتى يتطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن...".

وفي ذات السياق جاء مفهوم مَسَّ النساء، فقد ورد على لسان مريم "قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسُّنِي بَشَرٌ"⁵⁴. أما الإفضاء فيعبر عن أول اتصال جنسي لأنه يرتبط بفض البكارة⁵⁵، "وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذ منكم ميثاقاً غليظاً"⁵⁶. وتم مقارنة الاتصال الجنسي بين الزوجين بالغشيان "فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين"⁵⁷. ومائل الطمث الجماع "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"⁵⁸.

49 - الآية 222 من سورة البقرة

50 - الآية 187 من سورة البقرة

51 - الآية 56 من سورة الرحمن.

52 - الآية 74 من سورة الرحمن

53 - انظر المعجم الوسيط مادة رفث.

54 - الآية 47 من سورة ال عمران

55 - انظر المعجم الوسيط مادة فض

56 - الآية 21 من سورة النساء

57 - الآية 189 من سورة الأعراف

58 - الآية 56 من سورة الرحمن

لعل هذا التنوع والفتح الدلالي للجنس وللممارسة الجنسية، والذي لم يعرِه إبراهيم محمود اهتماماً كافياً، يعطي مجالاً أرحب لاستيعاب الجنس القرآني كمفهوم وتصور. فالجمع بين هذه المفردات المختلفة قد يعطي صورة أوضح للإجابة على التساؤلات التي طرحها الكاتب وبصورة أكثر عمقاً. والسؤال المطروح هنا: ما هي الدلالات التي يمكن استخلاصها من المفردات المتنوعة التي أنابت عن الجنس في النص القرآني؟

يرى محمود أن مفردة النكاح هي الأقرب إلى نفس وذهن الإنسان العربي والمسلم ليس فقط لأن النكاح تكثير مباشر بالممارسة الجنسية، وهو الوطء الذي يتلبس صفة شرعية... وإنما لأن النكاح يبرز كـ "وظيفة ذكورية، بل اعتلاء ذكوري، وانخفاض أنثوي، وتجسيد لسلطة الرجل في العموم. فالرجل هنا لا ينكح المرأة فقط، أي يعتليها متمتعاً بجسدها، بل (ينكح) حضورها، ويكون حضوره كلياً"⁵⁹.

ومع أننا نتفق مع محمود في أن النكاح هو فعل رجولي بامتياز، إلا أن التمعن في الآيات التي سبق ذكرها تبين لنا أن النزعة الذكورية حضرت في الخطاب والفعل وباستخدام مفردات متنوعة، في النكاح وفي غيره. فبدءاً من النظر إلى المفردات المتنوعة، ثم العبارات التي تم النطق بها، بالآيات المختلفة والدلالات التي تعطيها، يمكن القول أن تفكيك الآيات المختلفة التي تناولت الجنس في النص القرآني يسهم في الكشف عن العلاقة ما بين التصور الديني لأدوار كل الرجل والمرأة في الحياة الاجتماعية والتصور الديني لأدوارهما بالعملية الجنسية.

إن الأطروحة التي تنطلق منها هذه الدراسة تتمثل في كون النص القرآني ينظر إلى علاقة الرجل مع المرأة ولدور كل منهما في المجتمع، انطلاقاً من تصويره الجنس كعملية ذكورية، فثمة ما يمكن الإشارة إليه بالعلاقة الانعكاسية بين موقع المرأة الثانوي في الحياة الجنسية وموقعها في الحياة الاجتماعية، بمعنى أن تقسيم الحياة الجنسية لدى الإنسان إلى قسمين: مذكر ومؤنث، وربط أحدهما بالفاعلية والآخر بالمفعولية، ساهم في احتجاب المرأة وغياب حضورها الفاعل في المجتمع⁶⁰. ورغم أن إبراهيم محمود اكتفى بالحديث العمومي حول هذه القضية، ستحاول هذه الدراسة استيضاحها من خلال ثلاث قضايا مركزية، أولاً حدود الفاعل من جهة: الجنس الذكوري، ثانياً حدود المفعول به: المرأة كشهوة وإغراء. ثالثاً: الهندسة الاجتماعية القرآنية كانعكاس للهندسة الجنسية.

أولاً: حدود الفاعل: الجنس الذكوري

59 -محمود، إبراهيم. الجنس في القرآن. مصدر سابق، ص62.

60 - ولا يفوتنا أن نذكر بأن اللغة لا تنفصل عن حملتها المعرفية، فلغة النص القرآني هي لغة قریش بمعنى أن طبيعته الحضور للمفهوم الجنسي في اللغة القریشية كان حاضراً وفاعلاً، ولكن ضوابطه كانت اجتماعية واقتصادية، في الوقت الذي تغير الضابط في النص القرآني إلى ضابط نصي وإيماني.

تظهر النزعة الجنسية الذكورية بشكل واضح في النص القرآني، ويظهر الفعل الجنسي على أنه فعل ذكوري، محدد بإطار ثنائية الفاعل والمفعول به، ومن ذلك "أحل لكم الرفث إلى نسائكم" و"باشروهن" ولا تباشروهن"، و"ولا تقربوهن"، وفأتوهن"، و"انكحوا"، وكذلك في "فلما تغشاها حملت" فالرجل هو الفاعل في النكاح، والمرأة مفعول بها، و"نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"، فالرجال هم الحارثون والنساء هن المحروثات.

وتواصل النزعة الذكورية رحلتها في قول مريم للملاك "ولم يمسنني بشر"، فلم تقل ولم أمسس بشراً. ويتابع الخطاب في سياقات أخرى التأكيد على الجنس الذكوري "فانكحوا ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع". فالخطاب أطلق شهوة الرجل وحل له التمتع بالنساء حتى أربع نساء، وأباح للرجل الذي لم يعد يصبر على شهوة الجماع ولا يقدر على الزواج من الحرائر أن يتزوج مما ملكت يمينه⁶¹. وهكذا نرى أن الفاعلية الذكورية فرضت نوعاً من الحضور الطاغي لرغبات الرجل تم تأكيدها في سياقات متنوعة، فأصبح الرجل الفاعل جنسياً مسيطراً على مفعولين متعددين: أربع زوجات، وجواري إماء، أما تعدد هؤلاء فهو -كما توضح المرنيسي- يعني تجزئة رغبة الرجل الفاعل حتى لا يصبح الرجل أسير مفعول به جنسي واحد!⁶²

ولعل منح النص القرآني للرجل سيادة وانفراده فيما يخص التعدد والطلاق وعدم اباحتها للنساء فعل أي من ذلك، ينسجم تماماً مع تقديم الجنس كعملية ذكورية في النص القرآني، وتصوير الرجل كفاعل جنسي الإيجابي فيها، لهذا تشير فاطمة المرنيسي أن التعدد وحق الرجل المطلق في إنهاء الرابطة الزوجية يرتكز على "تفسير مرتبط بالغريزة شأنه في ذلك شأن التعدد، وإذا كان في تعدد الزوجات يتعلق بقوة شهوة الرجل الجنسية، فإن الطلاق يرتبط بجانب الملل الذي قد يعرفه الرجل في حياته الزوجية، بحيث يشكل بالنسبة إليه حماية ضد خطر الزنى الذي قد ينجم عن الملل"⁶³. وبناءً عليه، فإننا نجد أنه في الحالتين (الطلاق والتعدد) يظهر الرجل بصورة الفاعل الجنسي عبر تأكيد حضور رغبته الجنسية وبالمقابل من تغيب الرغبة الأنثوية.

61 - يشير فريد الزاهي إلى المفهوم الملتبس لـ "ملكت الأيمان" رابطاً إياه بزواج المتعة الذي تخلى عنه أهل السنة، ذلك لأن "ما ملكت الأيمان التي جاءت في النص القرآني، هي بهذا الشكل مجال غير متحدد، ولا يختلف إلا في صفته الشرعية عن الزنا. إنه مجال الشهوة بامتياز". للمزيد من الاطلاع حول هذه المقاربة، أنظر فريد الزاهي. **الجسد والصورة والمقدس في الإسلام**. مصدر سابق، 63.

62 - تبين فاطمة المرنيسي أن تعدد الزوجات في الإسلام يساهم في إضعاف الالتزام المتبادل بين الزوجين كعشيقين فالنتيجة الفعلية لتعدد الزوجات بحسب المرنيسي هي أن الزوجة لا تمتلك زوجها، والزوج الذي يتزوج بأكثر من واحدة لا يرتبط عاطفياً بامرأة واحدة فحسب، أما السبب وراء إضعاف الخلية الزوجية والحد من وصول العلاقة الزوجية بين الزوجين إلى المرحلة العشقية فترجعه المرنيسي لضمان بقاء "عبادة الله كهدف الوجود، فعلى كل مسلم أن يبذل طاقاته للتفاني في عبادة الله، فحب المسلم لله هو حب سام يتعالى عن الارتباطات الدنيوية التي وبغض النظر عن طبيعتها، يجب أن تأتي في مرتبة ثانية من بعد حب وعبادة الله، وبالتالي ضمن هذا التصور فإن تعدد الشركاء الجنسيين للرجل، هو ضمانة لمنع وقوع الرابطة الحميمة الفعلية بين الزوجين لما قد ينجم عنها من ألهاثهما عن عبادة الله. أنظر المرنيسي، فاطمة. **ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية**. مصدر سابق، ص 119.

63 - المرنيسي، فاطمة. **ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية**. مصدر سابق ص 41.

وبأخذ طبيعية حضور الرغبة الذكورية في بعض آيات القرآن وبهذه الصورة التخيفية يظهر ما يمكن تسميته بتثبيته للمرأة، فدعايات تفخيم الرغبة الذكورية مقابل تحجيم الرغبة الجنسية الأنثوية لم يقتصر على انفراد الرجل بحق الطلاق والتعدد في أربع نساء، وإنما احتوى النص القرآني على آيات تجيز للذكر أن ينكح الجوّاري والإماء والمحظيات في حالة عدم مقدرته على الحرائر، وتجزئ له كذلك اعتبار النساء غنائم حرب توزع على المنتصرين، وكأن المرأة أصبحت بذلك ليست أكثر من مجرد أداة خاصة لإشباع رغبات الرجل.

هكذا فإن الآيات التي تناولت موضوع الجنس كفعل ذكوري، تضمنت تعظيماً لشهوة الرجل الجنسية، مقابل تغييب الحديث عن شهوة أو رغبة المرأة، وإنكار متكرر للطبيعية الجنسية لها، ولعل هذا الأمر يتضح وبصورة أكثر مباشرة ويتجسد فعلياً باختلاف النظرة القرآنية لموضوع النشوز بين الزوجة والزوج، فتأكد مجدداً فاعلية الرجل ومفعولية الأنثى في العملية الجنسية، ففي الآيتين التي تناولت نشوز الزوجة ونشوز الزوج⁶⁴، نجد أنه إذا نشزت المرأة زوجها في الجماع صح له وعظها ثم هجر فراشها، وبعد ذلك ضربها حتى تطيعه في الفراش، في حين أن نشوز الزوج في الفراش لا يجيز للمرأة هجر فراشه وضربه حتى يطيعها في المواقعة والجماع، وإنما أن يتصالحا والصلح خير!

وهنا يمكن تفسير عدم المساواة في النتائج المترتبة على فعل النشوز بين الرجل والزوجة في اختلاف نظرة القرآن لحق وواجب كل منهما في ممارسة الجنس، فالحق يبدو مطلقاً للرجل ونشوز المرأة أو تخليها عن واجبها الجنسي بالتالي غير مقبول ويترتب عليه العقاب، بغض النظر عن أسباب تمنع الزوجة، أما حق المرأة في ممارسة الجنس مع زوجها فيبدو وكأنه موضوع ثانوي، ذلك لأن في حالة نشوز الزوج وتخليه عن واجبه الجنسي لا يحق للمرأة سوى الصلح بينهما.

وهكذا نرى أن عدم المساواة في عقاب التمتع عن ممارسة الجنس تتسجم مع الرؤية القرآنية للجنس كعملية ذكورية، وللرغبة المربوطة بالذكر، فتأتي تلك الآيتين للتأكيد مجدداً على تلبية شأن رغبة وشهوة الرجل، والانتقاص من شهوة المرأة ورغبتها، وبدورها الرغبة المربوطة بالذكر تجعل من المرأة كائن اجتماعي دون حياة جنسية أو بشكل أدق تجعل المرأة سلبية في الموضوع الجنسي وكأنها طرف محايد⁶⁵.

كما أن صورة الرجل المحتكر للجنس، والتي تثبت ثانوية المرأة وتبعيتها في الحياة الجنسية تتأكد كذلك في كون الخطاب الجنسي القرآني الموجه للرجل والذي يطلب منه تجنب الممارسة الجنسية في سياقات

64- الآية 34 من سورة النساء

الآية 128 من سورة النساء

65 - وضمن هذا التصور فإن مفهوم الجنس ينحصر بالنسبة للمرأة المسلمة في غاية إرضاء شهوة زوجها، الأمر الذي قد يساهم في تفسير قلة الزوجات العربيات والمسلمات اللواتي يتشبتن بحقهن الجنسي ويطلبون أزواجهن بذلك الحق.

متنوعة، لا يتقدم بنفس الطلب من المرأة، مثلاً في الآية "اعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يتطهرن"، والآية التي تمنع الجماع المرأة في صيام رمضان وتحله بعد الإفطار "فالآن بأشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم... لا تباشروهن وأنتم عاكفين في المساجد" حيث تأتي تلك الآيات في سياق التأكيد على اعتبار الرجل هو المبادر والفاعل الجنسي النشط، وعلى اعتبار الجنس ليس فقط فعلاً ذكورياً، بل وكأنه فعلاً فردياً وحقل ممارسة من طرف واحد هو الرجل.

وبتدقيق النظر في الآية " نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ" نجد أنها تتضمن مشهد للممارسة الجنسية تثبت فيه فحولة الرجل في مقابل سلبية المرأة في العملية الجنسية، حيث يشير فريد الزاهي إلى أن مشهد ايجابية الرجل وسلبية المرأة وعلاقة التبعية بين الرجل والمرأة تتأكد بالصورة البلاغية في الآية موضحاً أن تشبيه الذكوري بالمحرث وتشبيه الأنثوي بالأرض يحيل في المتخيل الكوني إلى خلق تعاضد صوفي بين المرأة والأرض. ويجعل الرموز المتصلة بالمرأة رموزاً ليلية لها صفة العمق والغور والظلمة. وتلك المرتبطة بالرجل رموزاً نهارية عمودية ومنتصبة⁶⁶.

ولأن الرجل هو الحارث والمرأة هي موضوع الحرث ولأن فعل الممارسة الجنسية ماطر بمراتب العلو والانخفاض، نجد أن الإيجابية والحركة والعلو والسلطة تنسب للرجل في العملية الجنسية والسلبية والثبات والخضوع تنسب إلى المرأة. الأمر الذي جعل ابراهيم محمود يقول أنه من خلال "الاعتلاء الذكوري والانخفاض الأنثوي يبرز النكاح كوظيفة ذكورية تؤكد سيطرة الرجل، فالرجل هنا لا ينكح المرأة فقط، أي يعتليها متمتعاً بجسدها بل ينكح حضورها ويكون حضوره كلياً"⁶⁷ لذا نجده يخلص إلى القول في مكان آخر بأن "الصورة التي كانت متداولة عن الرجل قبل الإسلام، لم تمح، بل وجدت مجالاً رحباً لها، على أكثر من صعيد، وخاصة من خلال آيات عديدة قاربت الجنس كعملية ذكورية، وأعطت للرجل القيادة في المسألة الجنسية، وفهمت هذه القيادة باعتبارها سلطة منصوص عليها الهياً، وهكذا يكتسب الدنيوي قداسة دينية"⁶⁸.

وبالاستناد إلى كل ما سبق، نجد أن المرأة تحضر في الآيات التي تناولت موضوع الجنس كحضور الغياب، م موضوعة بشكل مبطن في إطار المفعول به، غير أن النص القرآني احتوى أيضاً على آيات تكشف بصورة أكثر وضوحاً وظهوراً موقع المرأة السلبي كمفعول به بالعملية الجنسية، وهذا ما سيتم توضيحه في الجزء التالي من الدراسة.

ثانياً: حدود المفعول به المرأة كشهوة وإغراء

66 - الزاهي، فريد. الجسد والصورة والمقدس في الإسلام. مصدر سابق. ص 57.

67 - محمود، ابراهيم. الجنس في القرآن. مصدر سابق، ص 62.

68 - المصدر نفسه، ص 134.

وفي الآية " زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ " وضع النص القرآني المرأة في قمة الزينة المشتهاة، فالنساء تتعبر من أعظم وأحب الشهوات لدى الرجل ومن أكبر متاع الدنيا، هنا نجد حديثاً واضحاً عن شهوة الرجال وتغيباً لشهوة النساء، والشهوة نجدها مرة أخرى حصرت ببعد جنسي نكري لا غير، فشهوة الرجل معترف فيها دينياً بل ومباركة، والنص القرآني وفي مباركته لشهوة الرجل للمرأة، لا يجد أي مجال للحديث عن شهوة المرأة. بالمقابل نجد أن الآية تتضمن تصويراً للمرأة كمجرد جسد، والتعاطي معه على أنه من "متاع الحياة الدنيا"، وهنا يمكن الحديث مرة أخرى عن تشيئ المرأة، فالمرأة مثلها كمثل البنين والذهب والفضة والخيل المؤصلة والماشية والزرع، وبذلك هم جميعاً متساويين معها ذهنياً.

ومن جهة أخرى، نهى القرآن عن منع الفتيات من الزواج لأن ذلك قد يدفعهن نحو فاحشة الزنا "وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا"⁶⁹. ، فإن منعهن ووقعن في الزنا فكأنما دفعتم فتياتكم إلى الزنا دفعاً، ففي الآية اعتراف ضمني بشكل غير مباشر بشهوة المرأة ورغبتها الجنسية ولكنها حتى في هذا الاعتراف تظهر مجدداً كمفعول بها ذلك لأن الفاعل هو الذي منع أو يمنع المرأة من الزواج فيؤدي بها ذلك إلى الزنا.

أما الآية " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا"⁷⁰. يتضح أنه بالنسبة إلى الصلاة التي تؤدي خمس مرات في اليوم موزعة في النهار والليل، أحد أهم شروط قيامها الطهارة المعنوية والمادية، وذلك لأن الجنس يندس النفس والروح، فلا بد من الاغتسال لإزالة الدنس الذي لحق، ومن الواضح كذلك، أن ملامسة النساء كالمرض أو السفر، يحول الرجل إلى وضع نجس يحتم تطهيره بالغسل قبل الصلاة، وهذا ما أدى بالباحث فؤاد الخوري في كتابه "إيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة" إلى القول بوجود فعل التضاد الرموزي في الجنب ولامسة النساء، موضحاً أنه في القرآن " هناك من جهة، دعوى صريحة إلى الزواج والنكاح.... ومن جهة أخرى، اعتبار تنفيذ هذه الدعوى التي تقترض الجنابة، ومن الممارسات النجسة"⁷¹. وفي الحقيقة فإننا يمكن أن نشق فعلاً آخرًا من "التضاد الرموزي" في مقارنة جسد المرأة وصورتها قرآنيًا، فجسد المرأة وصورة المرأة كمفعول به لا يقتصر على كونه من متاع الحياة الدنيا وإنما هو في الوقت نفسه مصدر من مصادر النجاسة التي يجب التطهر منه قبل الاقتراب من الصلاة!!!.

69 - الآية 33 من سورة النور

70 - الآية 43 من سورة النساء

71 - الخوري، فؤاد. إيديولوجيا الجسد : رموزية الطهارة والنجاسة، بيروت: دار الساقى، 1997، ص81.

أما الآيات التي تلزم الرجل بدفع المهر إلى المرأة⁷² فتعزز بدورها من صورة مفعولية وسلبية المرأة في العملية الجنسية، ذلك لأن المهر استحقاقاً للمرأة ملزماً للرجل تمام الإلزام، مستحقاً استحقاقاً كاملاً بالجماع، فهو ثمن له، فإن طلق الرجل زوجته ولم يمسه ولم يسمى مهراً لها، دفع لها ما خرج من نفسه ما شاء، وإن طلقها وسمى لها مهراً ولم يمسه يدفع لها نصف مهر، أما المهر الكامل فهو استحقاق المس والوطأ!

بالإضافة إلى كل ذلك، فإن موقع المرأة كمفعول به بالعملية الجنسية وكمتمتقية للفعل الجنسي يكاد يتوضح بصورة أكثر مباشرة ووضوح في الآيات التي تم تقديم بها نساء الجنة. فحب الشهوات من النساء لا يقتصر على كونه من متاع الدنيا، وإنما من متاع الآخرة. وذلك بشهادة الآيات التي تحتوي وصفاً لنساء الجنة نذكر منها:

"فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"⁷³.

و"لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"⁷⁴.

إننا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبقاراً عربياً أتراباً"⁷⁵.

"إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً. وكواعب أتراباً"⁷⁶.

والكاعب هي الناهد التي يكعب ثديها ويرتفع ولا يترهل⁷⁷. أما العرب من النساء "فهن العاشقات لأزواجهن اللواتي اشتدت عندهن الرغبة الجنسية بدافع الحب والولاء"⁷⁸، والمقصود بقاصرات الطرف أنهم لا يرين سوى أزواجهن، وعرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الأنس والجان⁷⁹.

يشير محمود إبراهيم إلى أن النص القرآني يشكل مرجعاً أساسياً، وبل ومغريباً، لمن يريد معرفة كيف هن نساء الجنة. وي طرح بدوره التساؤل التالي: لماذا نساء الجنة؟⁸⁰ وما هو الدافع لذكر وتقديم النساء بهذا الشكل من الجمال والجاذبية؟. أما الأسباب وراء ذلك - بحسب إبراهيم - تعود لأن "الأوصاف المتعلقة بنساء الجنة، تلعب دوراً إغرائياً لجذب الإنسان (أي كان) إلى الإسلام"⁸¹، حيث تؤكد هذه الرؤية على أن

72 - الآيات 37 من سورة البقرة.

73 - الآية 56 من سورة الرحمن.

74 - الآية 74 من سورة الرحمن

75 - الآيات 35-37 من سورة الواقعة

76 - الآيات 31-33 من سورة النبأ.

77 - انظر المعجم الوسيط مادة كعب

78 - الخوري، فؤاد. ايدولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة. مصدر سابق، 71.

79 - محمود، إبراهيم. الجنس في القرآن. مصدر سابق، ص 150-151.

80 - المصدر نفسه، ص 149.

81 - المصدر نفسه، ص 150.

وصف نساء الجنة كأنما جاء فقط بهدف تعزيز موقع الرجل المؤمن وإغراءه بأن يكون من أتباع الرحمن ومن خصوم الشيطان. وهنا تجدر الإشارة إلى مقارنة حديثة من نمط مختلف لعبد الصمد الديالمي يقدم فيها دراسة غنية في مقارنة جنسية للمدينة الإسلامية والإرهاب، حيث يرى الكاتب أن الكبت الجنسي الذي هو مدار دراسته يقود إلى الاضطراب والنزوع للتعويض يتمثل بالبحث عن الله⁸².

ينتقل محمود إلى التعليق على معاني الآيات السابقة لتوضيح الخلفية الخطابية لها، ومن خلال التفصيل في الحديث النبوي المتعلق بنساء الجنة، يستنتج كذلك أن نساء الجنة في منتهى السلبية، خاضعات بالمطلق لرغبات الرجال، فيكتب "النساء هؤلاء، مجردات من كل تفكير، ومصوغات ومكونات وفق رغبات الرجل، شبقيات كما يردهن الرجل، مثيرات كما يبتغيهن الرجل كذلك جاهزات له، مستجيبات لمطالبهن في كل لحظة"⁸³.

غير أن ربط التصور القرآني للرجل كفاعل جنسي نشيط وللمرأة كمفعول جنسي في العملية الجنسية مع ما جاء به من آيات تصف نساء الجنة، قد يقدم تفسيراً وبعداً آخرًا، فبما أن المخاطب بالجنة هو أولاً وآخرًا للرجل، والمرأة لا تظهر بوردها سوى جسد ملحق بشهوات الرجل، يمكن القول أن القرآن لم يكتفي بتأطير الرجل كفاعل جنسي وإنما أكد في هذه الآيات على مفعولية المرأة وسلبيتها في العملية الجنسية، وبهذا المعنى فإن التصوير الحسي لجسد المرأة في القرآن وما أشار إليه إبراهيم محمود ب "بقاء المرأة متعة الرجل ولذته ومسكنه الشهوي"⁸⁴، وتجريد المرأة من العنصر الواعي فيها وتلخيصها إلى مجرد جسد، لا يقتصر فهمه فقط كآلية لإغراء المسلم بدخول الجنة وإطاعة الله؛ وإنما قد يفهم بشكل أعمق وبصورة أوسع عندما يربط مع الحدود التي رسمها القرآن في فاعلية الذكر ومفعولية الأنثى في العملية الجنسية.

أما ما يمكن اشتقاقه من كل ذلك حول مفهوم الجنس في القرآن، فإننا نجد أنه بما أن الرجل والمرأة غير متساويان في الفعل الجنسي، والمرأة لا تظهر كشريك جنسي متساوي مع الرجل، فإن صورة الجنس كشخصان يتعاونان لكي يمنح أحدهما الحب واللذة للآخر غائبة، إذ تتلاشى صورة الاتصال الجنسي الذي يجسد العلاقة بين الرجل والمرأة في إطار الحب والمودة والتواصل الإنساني، ويختزل مفهوم الجنس إلى مجرد غريزة وعملية ذكورية، بخاصة إذا ما تم ربطه مع موضوع تعدد الزوجات⁸⁵.

إن تنظيم ممارسة الجنس كما جاء في الآيات القرآنية بعيداً عن فرائض الصوم، يؤكد بدوره على محدودية النظرة القرآنية للجنس، فعلى سبيل المثال يشير فؤاد الخوري إلى أن "للارتواء الجنسي موضعاً

82 - للمزيد من الاطلاع أنظر عبد الصمد الديالمي. المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب: مقارنة جنسية. بيروت: دار الساقى. 2008.

83 - محمود، إبراهيم. الجنس في القرآن. مصدر سابق، ص 153.

84 - المصدر نفسه، ص 112.

85 - إن امكانية تعدد الزوجات في النص القرآني ساهمت في الأخرى في جعل موضوع الحب غائباً في العلاقة بين الزوجين ومفهوم الرغبة الجنسية الذكرية حاضراً.

خاصاً في الدين، وهو بمثابة المأكل والمشرب، يسري عليه ما يسري عليهما، لذا وجب تنظيم ممارسته وأخذ ما تشهد عليه فرائض الصوم⁸⁶. فالجنس الذي يعامل بالمساواة بين الطعام والشراب ويظهر كمجرد حاجة فسيولوجية لا أكثر، يعبر عن مفهوم محدد له ينفي مفاهيم أخرى له من مثل تجسيد حب ومودة، تأكيد ذات، ارتباط جسدي بالمحبوب، استهلاك متع الحياة، وغيرها.

وهذا في الحقيقة يتباين مع الآية التي تقول "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"⁸⁷، ففي الآية تأكيد على العلاقة الزوجية التي تقوم على المودة والرحمة ومعاني العطف والحنان، وكذلك يمكن القول أن الآية تتضمن صورة مختلفة وراقية لمفهوم الجنس وللرابطة الزوجية عموماً، ولكن يبقى مفعول هذه الآية مهدد بالتلاشي أمام الكم الهائل من الآيات التي ذهبت لتوصيف الجنس وضبطه، وأيضاً لأن الآية السابقة ذات صفة عامة، أما الآيات الأخرى فقد ذهبت للتخصيص.

أما الآيات التي أوضحت عاقبة الزنى في القرآن، فنجد أنها وضعت جميع الممارسات الجنسية الي تقع خارج إطار الزواج في دائرة الزنا والفاحشة، غير أن ضمن هذا المنطق لا يوجد فرق بين علاقة جنسية مستقرة تقوم على أساس الحب وعلاقة لحظية هدفها اللذة مقابل أجر مالي، فرغم الفرق الشاسع بين الحالتين، فكلاهما متساويان، لأن الجنس وفق المنطق القرآني لا يفهم هو الآخر، سوى من خلال ثنائية الحرام والحلال.

ويخلص التعقيب إلى أن الآيات التي تصف نساء الجنة تظهر وكأنها جاءت للتأكيد على مفعولية المرأة الجنسية وهي منسجمة بدورها مع الآيات التي تم التأكيد فيها على الجنس كعملية ذكورية، ذلك لأن الجنس القرآني من مصلحة الذكر، يصبح جسد الأنثى تلقائياً متعة الرجل، ويحضر الجسد الأنثوي منذوراً لفحولة الرجل ولفاعليته الجنسية وحقلاً لتفريغ الطاقة الجنسية الذكرية، ولكن الأمر لا يقف عند هذه النقطة بل يتعداها لتصبح المرأة لاحقاً وكأنها تتحرك في ضوء كونها متعة الرجل وفي ضوء هذا توضع القواعد والضوابط المرعية التي تفصل في مثل هذه المسائل فما احتجابها - كما سوف نحاول توضيحه في الجزء التالي والأخير من الدراسة - سوا انعكاس لترسيخ تلك العلاقة القائمة على ثنائية الفاعل والمفعول به بالعلاقة الجنسية.

86 - الخوري، فواد. ايدولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة. مصدر سابق، ص72.

87 - الآية 41، من سورة الروم.

ثالثاً: الهندسة الاجتماعية القرآنية كانعكاس للهندسة الجنسية

إن التصور القرآني للجنس يلقي بضلاله على التصور العام للحياة الاجتماعية ولعلاقة كل من الرجل والمرأة، وإذا اتفقنا على أن الجنس في الإسلام هو جنس منظم ومنضبط، وهو في نفس الوقت جنس ذكوري، يعترف بشهوة الرجل ويباركها، فما هي المعرفة التي يقدمها القرآن حول الرجل والمرأة والحضور الفاعل في المجتمع لكليهما؟ وهل هنالك من علاقة ما بين هذه المعرفة والمعرفة التي يقدمها حول الجنس؟ وأخيراً ما هي تداعيات كل ذلك ذكورية المجتمع؟

إن الآلية التي انتج بها الإسلام الثقافة الجنسية والمعرفة التي قدمها حول الجنس وحول علاقة الرجل والمرأة في الحياة الاجتماعية شكلت خطوطاً هامة وعامة في إعادة إنتاج ذكورية المجتمع، وبناءً عليه يمكن القول، أن الفصل النوعي بين الرجل والمرأة في المجتمع تم إعادة تأسيسه إيمانياً في المعرفة الجنسية والاجتماعية ولأدوار الرجل والمرأة القرآنية. سنحاول في هذا القسم الأخير من الدراسة تبيان كيف تم نسج كل من الجنسي والاجتماعي في النص القرآني، وكيف انعكست التراتبية في الفعل الجنسي بين الذكر والأنثى على التراتبية الاجتماعية، كما جاء في آياته.

شبه جسد الإنسان في القرآن بالعمرة التي يجب حجبها عن الآخرين. فالحشمة والستر والحفاظ على الفرج وتحسينه قيم مفروضة على النساء والرجال، وهذه بعض الآيات التي تشير إلى ذلك:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ.... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" 88.

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" 89

في الآيتين السابقتين نجد التشديد على ضرورة حفظ وتحسين الجسد للرجل والمرأة على حد سواء.

عرف ابن منظور العمرة بأنها " كل خلل يتخوف منه والعمرة كل ممكن للستر، وعمرة الرجل والمرأة سواتهما. والجمع عورات وهي كل ما يستحيا منه إذا "ظهر" النساء عورة والمرأة عورة لأنها إذا ظهرت يستحيا منها كما يستحيا من العمرة إذا ظهرت". في القرآن حين وسوس الشيطان لأدم وحواء في الجنة فأكلا من الشجرة فبانَت سؤوتهما، حيث ساوى الخطاب بينهما في الفعل والخطيئة، لكن العقاب في الاحتجاب كان أكثر زجراً في المرأة حينما كانت عورتها فيما بعد معظم جسدها، فعورة المرأة كل جسدها

88 - الآية 35 من سورة الأحزاب.

89 - الآية 30 من سورة النور.

باستثناء كفيها ووجهها. وبذلك يمكن القول أن التقعيد القرآني أسهم بأن دفع المرأة على وجه التحديد إلى الاحتجاب لباساً ومنزلاً⁹⁰، والسؤال المطروح هنا: لماذا ارتبطت العورة بالمرأة أكثر من الرجل؟

حرم القرآن رؤية زينة المرأة إلا للبعول (الأزواج)، وآبائهن، وأبنائهن، وأبناء أزواجهن، وإخوانهن، وبنو إخوانهن، أو ما ملكت أيمانهن، أو التابعين الصغار أو الكبار في السن الذين لا شهوة لهم بالنساء أقل للمؤمنات يَغُضُّنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ⁹¹.

مثلث هذه الآية مرجعية أساسية في تقنين لباس المرأة وكيفية ظهورها في المجتمع، لما ورد فيها من مسائل عديدة متصلة، ومن بين هذه المسائل: "غض البصر" و"حفظ الفروج" و"إبداء الزينة" و"ضرب الخمر على الجيوب"، ولما فيها كذلك من تفصيل لمجموعة الذكور التي يجوز أن يرى عورات النساء وزينتهن. حيث تحصر الآية الذكور الذين يسمح للمرأة أن تظهر زينتها لهم في الأنساب ممن حرم نكاحهم، مضافاً إليهم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، والرجال الموالون، أو العبيد المملكون، كلهم مجموعات من الذكور الذين لا يحق لهم الزواج شرعاً من هؤلاء النساء، وبذلك لا يشكلون تهديد مباشر.

ورغم أن حفظ العورة ضرورة للرجل والمرأة كما أكد بذلك النص القرآني، إلا أن النص احتوى تركيزاً على مسلك النساء أكثر مما ركز على مسلك الرجال، والمرأة أصبحت مطالبة بالتحرك في إطار ضيق لا يتجاوز المحارم. وفي السياق ذاته، يشير فؤاد الخوري إلى وجود تمايز بين جسد المرأة وجسد الرجل من الناحية الدينية، فجسد المرأة لا يوازي جسد الرجل في النص القرآني، وذلك لأنه "بينما تتناول الآيات القرآنية، على شيء من التفصيل، تحديد مسلك المرأة، إن لجهة استعمال الحجاب أو تجنب الضرب بالأرجل، أو البقاء في البيت وغيرها من التوجيهات الأخلاقية والخلقية، فإنها توحى، وبشكل عام جداً، بحفظ الفرج بالنسبة للرجال، ولا تحدد بالتفصيل القواعد التي يتطلبها هذا الحفظ، اللهم ما عدا ستر العورة"⁹².

وبأخذ وربط كل ما ورد سابقاً في هذه الدراسة، يمكن القول بأن التحكم بالجنس وتقنيته تم عبر تقنية حشر النساء، فالجنس القرآني الذي أعلى من شهوة الرجل في إظهارها ومن ثم مباركتها، وهمش بالمقابل شهوة المرأة، وجعل الاثنين غير متساوين في الرغبة الجنسية وفي الفعل الجنسي، وأصبحت بذلك المرأة هي

90 - كانت العورة لصيقة بالمرأة أكثر من الرجل؛ لكون النص القرآني جعلها عورة باستثناء كفيها ووجهها.

91 - الآية 31 من سورة النور

92 - الخوري، فؤاد. ايدولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة. مصدر سابق، ص 28.

موضوع رغبة، مهد لاحقاً لجعل أمر احتجابها بديهياً، فكما أن موضعة الرجل كفاعل جنسي أنتجت تلقائياً مفعولية المرأة، فإن موضعة المرأة كشهوة للرجل يترتب عليه تلقائياً احتجابها واختبائها سواء في البيت وفي الملبس. بمعنى أن إعطاء الفاعلية الجنسية للرجل والمفعولية للأنثى في آيات القرآن، أنتجت سلوكاً وقواعد للسلوك في النص القرآني ذاته.

ولعل معنى العورة كما جاء في المعجم الوسيط يفسر بشكل أوضح انعكاس تلك الرؤية الجنسية على الاجتماعية. فالعورة هي مكان الخلل يُخشى أن يعتدي الآخرون على صاحبه/تها من خلاله، ومن معانيها أيضاً: أعور الفارس: أي بدا فيه موضع خلل للضرب والطعن⁹³، فعلى المرأة أن تحرص على مكان طعنها فلا تظهر خللاً ينفذ الطعن من خلاله، ولا يكون ذلك إلا بالمبالغة بالتحصن لباساً، مع بقاء الحذر كامناً حتى لا يبان خللها سهواً، فهي أشبه بالفارس الذي يتمترس بالدروع فلا يبان منه ما يقود لضعفه وقلته في المعركة، وهي (العورة) قلعة تمت المبالغة بتحسينها بالأسوار، وكما تستر الأسوار من خلفها خيفة وتوجساً، فإن اللباس الساتر للعورة يقع في إطار التصور ذاته. ناهيك عن أن الاستعارة تضع المرأة وقت خروجها في غمار معركة، وما يترتب تندي مستوى الأمان، والمبالغة بالحذر والترقب، والأمل بسرعة الانقضاء. بينما البيت لحظة أمان ودعة وراحة.

ويضاف إلى كل ذلك قراءة استعارية للمرأة التي تظهر عورتها وكأنها تعرض نفسها للاعتداء والطعن سواء بالمجاز عن طريق النظر المنفعل بالشهوة إليها، أو التقول على مظهره العورة بالفحش، أو بالمعنى الحرفي للطعن الذي تقدمه الاستعارة الحسية الجنسية، حيث الطعن بالرمح أو الخنجر يفضي إلى القتل، وأداة الطعن (الرمح والخنجر) استعارة طعن للأداة الذكورية ممثلة بالقضيب، ليكون حاصل تصور الاستعارة بأن ظهور العورة (بغض النظر عن أي مكان في الجسد باستثناء الوجه والكفتين) يعني ظهور مكان ضعيف ينفذ من خلاله إلى الطعن، إي الممارسة الجنسية مع ذلك المكان، فلو بدت رقبة الفتاة مثلاً لتحولت إلى فرج يطعن، وهذا مُفسّر بقول الرسول: "إن العين لتزني".

هكذا يمكن أن نجد أن الرقابة على المرأة وعزلها كما جاء في النص القرآني جاء منسجماً مع الصورة والخطوط العامة التي قدمها القرآن حول الجنس والمعرفة الجنسية، بمعنى أن الفاعلية الذكورية والجنس الذكوري أنتجت هنا سلوكاً وقواعد للسلوك فرضت على المرأة، فمقابل إعطاء الرجل راحة نفسية في اشتهاؤ المرأة، بل ومباركة هذا الإشتهاء في النص الديني، كونه الفاعل جنسياً، فإن الخطاب التي يوجه للمرأة بصفتها في موقع المفعولية الجنسية، يجعلها تعي جسدها كحقل لألغام وخزير مغريات ومحرمات يمنع النظر اليه من قبل الفاعل الجنسي الذكر ويحملها كذلك المسؤولية تحصيله وحمايته.

93 - انظر مادة عور المعجم الوسيط.

وبذلك فإن نتفق مع ابراهيم محمود في أن " التراث الجنسي السابق على القرآن لم يندثر بل تمت إزاحته أو زحزحته بأكثر من معنى ووجد الكثير منه في فضاء المعنى القرآني مثله مثل نقاط أخرى كثيرة كمفهوم الخلق، وقصة يوسف، وقصة الطوفان"⁹⁴. ويخلص التعقيب إلى أن القيود التي كانت مفروضة على المرأة ما قبل الإسلام ازدادت؛ فبالإضافة إلى اشتغال الضوابط الاجتماعية رزحت المرأة تحت نير الضوابط النسبية وهذا ما كبلها وفرض عليها مطلق احتجاجها دينياً واجتماعياً.

خاتمة وتوصيات

بينت عملية اخضاع الديني للنقد والتحليل أن الخطاب القرآني حول الجنس كان خطاباً منظماً للجنس أكثر من كونه محلاً له، وهنا يمكن أن نفهم بصورة أوضح ما ذهب إلى قوله فريد الزاهي بأن " أن الجنس في الإسلام لا يمثل سوى الجنس في الموقع الديني والإسلامي، بمعنى أن الجنس في الإسلام غير موجود وبعيد عن تلك الدائرة". فضبط الجنس كان إحدى الوسائل الرئيسية التي لجأ إليها الإسلام لإقامة نظام اجتماعي جديد في الجزيرة العربية الجاهلية، غير أن هذا الضبط جاء غير منفصل عن السلطة الذكورية، فالجنس قرآنيّاً كان فعلاً ذكورياً، وتم تناوله من باب الرغبة الذكورية، وأصبحت المرأة وكأنها تتحرك في ضوء كونها متعة الرجل وفي ضوء هذا وضعت القواعد والضوابط المرعية التي تفصل في مثل هذه المسائل اجتماعياً.

إن الثقافة الجنسية في النص القرآني والتي موضوعة الرجل كفاعل جنسي أنتجت تلقائياً مفعولية المرأة في الحياة الاجتماعية، فتأطير المرأة كشهوة للرجل وتحديدها كموضوعاً للإشتهاء، ترتب عليه تلقائياً احتجاجها واختبائها سواء في البيت وفي الملبس. فمقابل الحضور المهيمن للرجل في الفعل الجنسي، فإن المرأة تمتلك حضوراً أشبه بالغياب، وانعكس ذلك الغياب عليها داخل المجتمع، فرسم الرجل بحضوره الطاعي جنسياً طبيعة حضورها المدفوع للاحتجاب في البيت، وفي اللباس، وفي الشارع والأماكن العامة، وأهم من ذلك كله في وعيه.

وبناءً عليه قد يكون القول بأن الخطاب القرآني ظهر وكأنه لم يحدث قطيعة حقيقية مع مفهوم الجنس وبقي الجنس وفي آيات عديدة بعيداً عن مفهومه الإنساني، ورغم وجود آيات عديدة في النص القرآني تموضع العلاقة بين الزوجين في إطار المودة والرحمة وتقدم مفهوم راقٍ للجنس، إلا أن ثنائية الفاعل والمفعول بقيت مركزية في الخطاب الديني، وكذلك ساهمت المقاصد الحرفية للنص القرآني هي الأخرى

⁹⁴ - محمود، ابراهيم. الجنس في القرآن. مصدر سابق، ص 61.

في إغلاق النص على الفهم، وبالتالي يمكن فتح النص من خلال ربط الآيات بالسياق الزمني والمكاني لإنتاج مفهوم راقٍ (مختلف للجنس) في النص القرآني.

وبما أن الخطاب الجنسي في النص القرآني أعاد إنتاج التصورات والتمثلات لطبيعية الحضور التصنيفي للرجل والمرأة في المجتمع، فإن قراءة جديدة لتموضع كل من الرجل والمرأة جنسياً في النص القرآني، تسهم في كونها تفتح الباب أمام إعادة صياغة حضور كل منهما اجتماعياً. ناهيك عن ضرورة القراءة في المدونة الفقهية "التفسير" ذلك لأنها أعادت إنتاج الجنس بطريقة مختلفة، فالنص فيه قواعد عامة، أما الفقه ففيه تفصيلات يقسها على القواعد العامة، وقد غالى في إنتاج ذكورية الجنس، وهو قد يكون مؤثر أكثر من القرآن في الناس، ذلك لأن القليل للأسف يميز بين قراءة القرآن والقرآن نفسه.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الرومي: ديوان ابن الرومي. شرح الأستاذ أحمد حسن بسج. ج3. ط3. بيروت: منشورات محمد علي بيضون: دار الكتب العلمية. 2002.
- بوحديبة، عبد الوهاب. الإسلام والجنس. ترجمة وتعليق: هالة العوري. ط2. بيروت: رياض الريس للنشر والتحرير. 2001.
- فوكو، ميشال. تاريخ الجنسية الجزء الأول "إرادة العرفان". ترجمة محمد هشام. 2004. المغرب: أفريقيا الشرق.
- الخوري، فؤاد. ايدولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة، بيروت: دار الساقي. 1997.
- الديالمي، عبد الصمد. المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب: مقارنة جنسية. بيروت: دار الساقي. 2008.
- الزاهي، فريد. الجسد والصورة والمقدس في الإسلام.. المغرب: أفريقيا الشرق. 1999.
- سبيلا محمد، وعبد السلام بن عبد العالي. دفاقر فلسفية: اللغة. ط4. الدار البيضاء: دار توبقال.
القرآن الكريم.
- محمود، ابراهيم. الجنس في القرآن. رياض الريس للكتب والنشر، 1994.
- المرينسي، فاطمة. ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية. ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل. ط4. 2005. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- المرينسي، فاطمة. الحريم السياسي: النبي والنساء. ترجمة عبد الهادي عباس. دمشق: دار الحصاد. 1990.
- المعجم الوسيط.
- المنجد، صلاح الدين. الحياة الجنسية عند العرب من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع عشر. دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، 1975.